

دعوى ظاهر القرآن وباطنه

وموقف أبي إسحاق الشاطبي منها

الدكتور حسن منصور
جامعة ابن زهر/كلية الآداب/أكادير

مناصر الموضوع

- 1 - عرض الدعوى وأدلة مدعيها
- 2 - رأي الشاطبي فيها إثباتا أو نفيا
- 3 - الظاهر المذموم وسبب ذمه
- 4 - الباطن المذموم
- 5 - الظاهر المحمود آيل إلى التصديق بالرسالة
- 6 - الباطن المحمود، والوسائل المحينة على إدراكه

أولاً: عرض الدعوى وأدلة مدعيها

يبدو من الأنسب قبل خوض الحديث في موضوع ما، تتجاذبه أنظار العلماء بما في ذلك كلام المستهدف بالرد عليه: التعرض لدعوى المدعي وأدلتها على دعواه. وهذا هو المنهج السلوك من قبل أبي إسحاق الشاطبي في معالجته للموضوع أعلاه، فقد تناوله بمنهج مُشعر - في بداية كلامه - بعدم تسليمه لدعوى الخصم. قال رحمه الله: «من الناس من زعم أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وربما نقلوا في ذلك بعض الأحاديث والآثار»¹.

في النص تصريح بالدعوى وتبنيه على مستند مدعيها، وقبل فصل الكلام في ذلك المستند تحسن الإشارة إلى من عناه الشاطبي بعبارة: من الناس من زعم أن للقرآن ظاهراً وباطناً. فهو

¹ - المرافقات في أصول الشريعة: 208/4.

رحمه الله إلى حدود هذه السطور مُجمل للكلام، تبيينه آت في مواضع أخرى من الموافقات كما سيأتي في محور الباطن المذموم وسأكتفي هنا ببعض الإشارات من قبل من تقدمه أو عاصره من العلماء، فمنهم المصيق، ومنهم الموسع كابن العربي في قانون التأويل، وابن تيمية في الفتاوى، فالأول يلمح حيناً ويصرح حيناً آخر كقوله في مقام التلميح: «وتكلف طائفة ما يستغنى عنه وهم جماعة من الصوفية أنحاء غريبة منها قولهم: إن الله تعالى لما خلق آدم قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾¹، ولم يقل: إني خالق عرشا ولا سماء ولا أرضاً... حتى خلق آدم، وقال لهم²: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ...﴾ الآية، فما الحكمة فيه؟»

قال ابن العربي: «ثم اختلفت مدارك خواطره في بيان ما تكلفوا سؤاله، فركب كل واحد منهم على ذلك فنا من فنون المقاصد عظيما، وولجوا مفازة لا تقطعها المهاري، ولا تزال الفكر فيها حيارى، حتى أدخلها المتأخرون في كل آية وحرف، وغادروا في سبيلهم رذية³ كل جلدية⁴ وحرف⁵، ولم أزل أطلب هذا الفن في مظانه وفي مراجعة شيوخه فيه حتى وقفت على حقيقة مذهبه.

فهو رحمه الله هنا اكتفى بالإشارة إلى أنهم اختلفوا في بيان المراد من الآية دون أن يكلف نفسه عناء نقل نوع ذلك الاختلاف، ودون أن يتصدى لبيان المراد من الآية من جهته. وإلى هذا المعنى أو قريب منه أشار الدكتور محمد السليمان بقوله: «ولم يتعرض لهذا الإشكال الذي طرحته الصوفية بالرغم من تعرضه لتفسيرها»، ولعله يقصد قول ابن العربي المتقدم قريبا: «ولم أزل أطلب هذا الفن في مظانه، وفي مراجعة شيوخه فيه، حتى وقفت على حقيقة مذهبه». ثم أشار -أي المحقق- إلى أن القشيري في "لطائف الإشارات"⁶، تطرق لهذا الإشكال، وأبان الحكمة فيه، فقال: «وإنما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ تشريفاً وتخصيصاً لآدم»⁷.

¹ - سورة البقرة: 29.

² - قانون التأويل لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي (ت: 543هـ) ص: 196-197، دراسة وتحقيق: محمد السليمان، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية. (ذكر ذلك تحت محور ذكر الباطن من علوم القرآن).

³ - الرذية: الذي أثقله المرض، والرذية من الإبل: المهزول المالك الذي لا يستطيع براحا ولا يبعث، والأثنى رذية، وفي الصحاح: الرذية: الناقة المهزولة من السير. (لسان العرب، 143/6، فعل رذى).

⁴ - قال الفراء: الجلد من الإبل التي لا أولاد معها فتصير على الحر والبرد (المصدر السابق: 175/3، فعل جلد).

⁵ - الحرف من الإبل: النجبة الماضية التي أنضت أسفار، قال الأصمعي: الناقة المهزولة (المصدر السابق: 89/4، فعل حرف). قال الدكتور محمد السليمان محقق كتاب: "قانون التأويل" تعليقا: ومراد المؤلف هنا: الإشارة إلى مشاق السفر الذي يتحملونه في طلب معرفة ذلك، والله أعلم (قانون التأويل، ص: 197 الهامش رقم 2).

⁶ - 75/1.

⁷ - قانون التأويل، ص: 197، الهامش رقم 1.

وقوله في مقام التصريح جواباً على سؤال بعض المتصوفة — هو على شاكلة السؤال الذي تقدمه في الآية: «إني جاعل في الأرض»: «ولقد سألتني بعض أصحابي من السالكين عن قول صاحب الحقائق: ما الحكمة في قول الله — سبحانه: ﴿وَلَنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَنْ يُرِيكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَدَّ لِفَضْلِهِ﴾¹ فأضاف الضر إلى المس والخير إلى الإرادة².

ويعني بصاحب الحقائق: أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (ت: 412هـ) من كبار المتصوفة، له تأليف عديدة في التصوف والتفسير والحديث، وكتاب الحقائق الذي أشار إليه هو تفسيره الصوفي للقرآن الكريم والمسمى بـ: «حقائق التفسير»³.

وهذا الكتاب من ضمن ما استفتي فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فكان جوابه موعباً شاملاً تناول بالبيان المقصد من علم الباطن مقارنة بينه وبين الظاهر، فما اختلف كان حقاً وما اختلف كان باطلاً. ومدعي هذا الباطل أصناف وفرق: كالباطنية القرامطة من الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم، وباطنية الصوفية المفسرين لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَبَّ إِلَيْنَا عَوْفٌ﴾ (طه: 42) بالقلب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخُلُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة: 66) بالنفس.

وباطنية الفلاسفة الذين يفسرون الملائكة والشياطين بقوى النفس. وشر الثلاثة: الباطنية القرامطة على حد تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد ادعوا أن للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر، فقالوا: «الصلاة» المأمور بها ليست هذه الصلاة، أو هذه، فهذه الصلاة إنما يُؤمر بها العامة، وأما الخاصة، فالصلاة في حقهم معرفة أسرارنا، و«الصيام» كتمان أسرارنا، و«الحج» السفر إلى زيارة شيوخنا المقدسين.

وقالوا: إن «الجنة» للخاصة: هي التمتع في الدنيا باللذات، و«النار» هي التزام الشرائع والدخول تحت أثقالها⁴.

وقد وقع هذا — كما أفاد شيخ الإسلام — في كلام كثير من متأخري الصوفية، ومتأخري أهل الكلام والنظر ما لم يوجد مثله عن أئمة ومتقدمي هؤلاء وأولئك⁵.

¹ — يونس: 107.

² — قانون التاويل: ص: 197-198.

³ — نفسه: الهامش 3، ص: 197-198. وجواب أبي بكر ابن العربي جاء في صفحات من 198 إلى 207، ولطوله تركت نقله، ولا تتم الفائدة للقارئ إلا بالرجوع إليه، فهو في غاية النقاسة.

⁴ — مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت: 728هـ): 231/13 و 236-237-238. طبعة مكتبة المعارف الرباط، المغرب، بدون.

⁵ — نفسه: 238/13-239.

بعد هذا البيان المقتضب حول أصحاب الدعوى الذين أجمل الشاطبي في حقهم الكلام أعود إلى ما أورده من الأدلة المستدل بها في إثبات الدعوى أعلاه، وبيان ذلك فيما يلي:

أدلة مدعى ظاهر القمآن وباطنه

الدليل الأول: مرسل الحسن البصري رحمه الله، فقد جاء فيه أن النبي ﷺ قال: «ما أنزل

الله آية إلا ولها ظهر وبطن — بمعنى ظاهر وباطن — ولكل حرف حد ولكل حد مطلع»¹.

نقل أبو إسحاق رحمه الله تفسيرهم له قائلًا: «وُفسر بأن الظهر والظاهر هو ظاهر التلاوة والباطن هو الفهم عن الله لمراده»² والدليل على أن المقصود بالباطن هو مراد الله تعالى ما استدل به في الدليل الثاني الآتي:

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾³ والمعنى عندهم

لا يفقهون عن الله مراده من الخطاب، ولم يرد — الله في نظرهم — أنهم لا يفهمون نفس الكلام، كيف وهو منزل بلسانهم؟ ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام. ويشهد في اعتقادهم لهذا المعنى الذي استنبطوه ما روي عن علي وقد سئل: هل عندك كتاب؟ فقال: «لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه مسلم أو ما في هذه الصحيفة»⁴.

عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: خطبنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: «ما عندنا إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة، وقال فيها: قال رسول الله ﷺ: «المدينة حرام ما بين غير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى فيها محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم»⁵.

قال أبو إسحاق: قالوا: وإليه يرجع تفسير الحسن للحديث، إذ قال: «الظهر هو الظاهر والباطن هو السر»⁶.

¹ — أنظر مصادر تخرجه في الموافقات 208/4 هامش رقم: 2.

² — الموافقات: 208/4.

³ — النساء: 78.

⁴ — صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: كتاب العلم.

⁵ — الإمامة والرد على الرافضة لأبي نعيم الأصبهاني: ص: 351، تحقيق وتعليق د. علي بن محمد ناصر الفقيهي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة.

⁶ — الموافقات: 210/4.

أورد شيخ الإسلام أثر الحسن البصري بالصيغة الآتية: «إن لكل آية ظهراً وباطناً وحداً ومطلعاً» وتعقبه قائلان: وقد شاع في كلام كثير من الناس: «علم الظاهر وعلم الباطن» و«أهل الظاهر وأهل الباطن»، ودخل في هذه العبارات حق وباطل.¹

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾²، قالوا: فظاهر المعنى شيء، وهم عارفون به، لأنهم عرب، والمراد شيء آخر، وهو الذي لا شك فيه أنه من عند الله، وعليه فالتدبر إذا حصل، فإن الاختلاف في القرآن يقل أو يتعدى، وسبب ذلك أن التدبر يفضي إلى الاتفاق في فهم المقاصد الشرعية وأطراح الاختلاف، قالوا: وهذا هو الباطن المشار إليه.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا﴾³، قالوا: فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن، ومنهم — كما أفاد الشاطبي — من جعل الكلام في القرآن على ضربين:

أحدهما: ما كان برواية، فليس يعتبر فيها إلا النقل.
ثانيهما: ما كان بدراية قالوا: وهذا النوع لا يكون إلا بلسان من الحق، قصد إظهار حكمة على لسان العبد.

قال الشاطبي تعليقاً على الضرب الأخير: «وهذا الكلام يشير إلى معنى كلام علي»⁴. هذه جملة الأدلة التي استدلل بها القائلون بظاهر القرآن وباطنه، وأراها — بعد إمعان النظر فيها — غير منطبقة على الفرق الثلاث الضالة المضلة التي مضى الحديث عنها آنفاً، مما سوف يجعل القارئ في حيرة من الأمر، فيتساءل: هل لتلك الفرق فهم آخر غير ما فهمه غيرهم من ظاهر القرآن وباطنه؟ مما جعلهم ينبسون بتفسيرات مضحكة ومخجلة، كلها ترهات ومخاريق، أم أن الأدلة المسوقة هنا هي أدلتهم أيضاً في إثبات الدعوى؟ غاية ما هنالك أنهم اتخذوها تقيّة ترويحاً للبضاعة وتحقيقاً لأغراضهم الدينية، ولولاها لأجهضت الفكرة في المهد.

¹ - مجموع فتاوى ابن تيمية: 232/13.

² - النساء: 82.

³ - محمد: 24.

⁴ - المرافقات في أصول الشريعة: 210/4.

ومهما يكن، فالمنطق العلمي يدعو إلى تلمس موقف أبي إسحاق مما أورده من تلك الأدلة، وموقفه قبل من تلك الدعوى ومعرفة ذلك كله فيما يلي:

ثانياً: رأي الشاطبي في الدعوى إثباتاً ونقياً

يبدو من لفظة "زعم" التي استفتح بها الشاطبي كلامه لبحث هذه القضية عدم إيمانه بذلك الفهم الذي ادعاه قائلوه، غير أنني لاحظت بعد عرضه لتلك الحجج انشراحه لها واطمئنانه بها. يظهر ذلك جلياً في النص الآتي: قال رحمه الله: «وحاصل هذا الكلام أن المراد بالظاهر هو المفهوم العربي، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه، فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فُسر، فصحيح ولا نزاع فيه، وإن أرادوا غير ذلك، فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوماً عند الصحابة ومن بعدهم»¹.

فهمت من قوله: «فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فسر...» أنه يرى أن الناس في مسألة ظاهر القرآن وباطنه فريقان:

- فريق يعتبر أن الظاهر هو المفهوم العربي، والباطن هو مراد الله تعالى من خطابه للمكلفين.

- وفريق يفسرهما تفسيراً يحقق به أغراضه الخبيثة، ويؤيد به مذهبه الفاسد، وكأنه به - في النص أعلاه - يلوح بهذا الفريق الثاني، وقد استهدفه بالرد عليه كما سيأتي ذلك في محور الباطن المذموم.

وعلى كل حال فالنص دليل على قبوله لدعوى ظاهر القرآن وباطنه، وهو قبول لم يكن بناءً على ارتياحه لما ساقه من أدلة المستدل فحسب، بل انضاف - في تقديري - إلى تأمله لها بحثه عن أدلة أخرى في أقوال واستنباطات المفسرين من الصحابة والتابعين الذين ارتووا من المورد العذب، وتلقوا الحكمة من مصدرها، وهو في بحثه عنها واستنطاقه إياها لم يستدل إلا بالكتاب وبما صح عن النبي ﷺ، أما الأخبار المرسلة أو المسندة الضعيفة السند، فلا يحتاج بها لأنها في هذه الحال تكون دليلاً ظنياً، والظني لا يستقيم أمره في إثبات الدعوى موضوع العرض، قال رحمه الله: «فلا بد من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى، لأنها أصل يحكم به على

¹ - الموافقات: 210/4.

تفسير الكتاب، فلا يكون ظنيا، وما استدل به إنما غالبه إذا صح سنده أن ينتظم في سلك المراسيل»¹.

وصفوة القول أن أبا إسحاق رحمه الله أصبح من المثبتين للدعوى المتقدمة، لكنه إثبات مشروط باعتماد أدلة قطعية، ومزيदा من البيان انتدب نفسه للبحث والتنقيب عن أدلة صحيحة تعريفا بالقضية وتمثيلا لها.

وسأرجئ الحديث عنها إلى محور الأخير: الباطن المحمود والوسائل المعينة على إداركه. ولا بأس بالتذكير بأن المنهج الأسلم يفرض علي قبل تناول ذاك الباطن المذموم الحديث أولا عن الظاهر المحمود، إذ ليس من السانغ عقلا بحث باطن الشيء قبل معرفة ظاهره. ولأن نوايا المتصددين لتفسير مراد الله تعالى تختلف، فسيترتب عن هذا الاختلاف حتما اختلاف تفاسيره. وبيان ذلك أن صاحب النية الحسنة يكون تفسيره لا محالة محمودا، وصاحب النية السيئة يكون تفسيره مذموما، ظاهرا كان التفسير في الحالتين أو باطنا، والمنطق يقضي ببيان المذموم قبل المحمود، من أجل ذلك فضلت - في التصميم السابق - تناول ذاك المذموم - بشقيه الظاهري والباطني - قبل المحمود، فأبدأ وعلى الله التكلان بـ:

ثالثا: الظاهر المذموم وسبب ذكره

أورد الشاطبي رحمه الله بشأن هذه المسألة نصوصا قرآنية فهمها الكفار فهما سطحيا أفضى بهم إلى الإلحاد والعياذ بالله من ذلك:

- قول الحق سبحانه وتعالى: «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا»². قال الكفار: ما بال العنكبوت والذباب يذكر في القرآن؟ ما هذا الإله؟ فترل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَمَوْضِعَةٍ مَّا فَوْقَهَا﴾³.

قال أبو إسحاق رحمه الله تعليقا على كلامهم: فأخذوا بمجرد الظاهر، ولم ينظروا في المراد، قال: فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾⁴.

ومزيदा من التوضيح أورد مثلا محسوسا يتعلق بالحياة الفانية مبرزا أنها حياة ذات شقين ظاهري وباطني، والكفار إنما اعتادوا منها بالشق الظاهري الذي هو اللهو، واللعب، والظل

¹ - الموافقات: 210/4.

² - سورة العنكبوت: 41.

³ - البقرة: 26.

⁴ - السورة والآية نفسها.

الزائل متعافلين - جهلاً أو تجاهلاً - عن الشق الباطني المراد منها، وهو كونها معبراً لا محل سكنى¹.

- وقوله سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾²، قالت اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾³، قال أبو إسحاق: ففهمهم للآية لم يزد على مجرد القول العربي الظاهر بمحلهم استقراض الرب الغني على استقراض العبد الفقير⁴.

- وقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَلْخَصَرُوهُمْ وَأَقْمِدُوا أَلْهُمَّ كُلَّ مَرَصِدٍ﴾⁵، ثم قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾⁶، ففهم المنافقين لها لم يزد على مجرد فهم ظاهر الأمر من أن الدخول فيما دخل فيه المسلمون من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة موجب لتخليه سبيلهم، وعملوا على الاحتراز من عوادي الدنيا، وتركوا المقصود من ذلك من التبعيد لله والوقوف عند حدوده⁶.

فإذا كانت الصلاة مثلاً - في نظر أبي إسحاق - مشعرة بالزام الشكر عن طريق الخضوع لله والتعظيم لأمره، فإن من دخلها غرياً من ذلك، فليس ممن فهم باطن القرآن.

- ومن الشكر أن المال إذا حال عليه الحول وجب على ربه شكر النعمة ببذل اليسر من الكثير عوداً عليه بالزيد، ومن وهبه عند رأس الحول فراراً من أداء الزكاة لا قصد له إلا ذلك لا يكون شاكرًا لتلك النعمة ومن ثم شاكرًا لله.

- ومن هذا القبيل من ضار زوجته لتنفك له من المهر على غير طيب النفس لا يكون عاملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقيِمَا حَدُودَ اللَّهِ فَمَا جُنَاحٌ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾⁷.

- وتسري مسائل الحيل أمثلة لهذا المعنى الظاهري، لأن من فهم باطن القرآن في نظر أبي إسحاق لم يحتل على أحكام الله تعالى حتى ينال منها بالتبديل والتغيير.

ومن وقف مع مجرد الظاهر غير ملتفت إلى المعنى المقصود اقتحم هذه المآهات البعيدة⁸.

¹ - الموافقات: 214/4.

² - البقرة: 245.

³ - آل عمران: 181.

⁴ - الموافقات: 218/4.

⁵ - التوبة: 5.

⁶ - الموافقات: 220/4-221، بصرف.

⁷ - سورة البقرة: 229.

⁸ - الموافقات: 221/4.

- ومن قبيل المتهاتات تلکم التفسیرات السخيفة المستبطة من قبل ذوي الأغراض الخبيثة، وبيان ذلك فيما يلي:

رابعاً: الباطن المضموم

أفاض أبو إسحاق رحمه الله بخصوص هذه النقطة في ذكر الأمثلة الدالة على سفاهة قائلها من انتسب إلى الفرق الضالة المضلة كالباطنية والشيعة والمتكلمين ومن على شاكلتهم. ولأن المقام أضيق من أن يتسع لكل ما خطت بنانه فسوف أجتزئ منه بنماذج يسيرة توضيحا للصورة وتمثيلاً لها.

قال رحمه الله: «ومن أمثلة هذا الفصل ما ادعاه من لا خلاق له من أنه مُسمى في القرآن كبيان بن سمان حيث زعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾¹. قال أبو إسحاق رحمه الله عقب هذا الادعاء: "وهو من الترهات بمكان مكين، والسكوت على الجهل كان أولى به من هذا الافتراء البارد، ولو جرى له على اللسان العربي، لعدّه الحمقى من جهلتهم، ولكنه كشف عوار نفسه من كل وجه، عافانا الله وحفظ علينا العقل والدين بمنه".

قال: "وإذا كان بيان في الآية علماً له، فأى معنى لقوله: «هذا بيان للناس» كما يقال: هذا زيد للناس"².

وأتى بعلم آخر كان على مدرجة الذي قبله حيث ادعى أنه مسمى في القرآن، فقال رحمه الله: «ومثله في الفحش من تسمى بالكسف، ثم زعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِرُوحٍ كَثِفًا مِنَ السَّمَاءِ مَاقِلًا﴾³، قال أبو إسحاق تفنيدياً لهذا الافتراء: "فأى معنى يكون للآية على زعمه الفاسد؟ كما تقول: وإن يروا رجلاً من السماء ساقطاً يقولوا: سحاب مركوم، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً"⁴ وعرف بعد هذين العلمين تعريفاً مقتضياً.

وعلى مهيعهما سار عبيد الله الشيعي المسمى بالمهدي، فقد حكى أبو إسحاق عن بعض العلماء أن هذا الشيعي لما ملك إفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامه ينتصر بهما

¹ - آل عمران: 129.

² - نفسه.

³ - الطور: 44.

⁴ - نفسه.

على أمره، وكان أحدهما يسمى بنصر الله، والآخر بالفتح، فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ¹﴾.

ومثل ذلك فعل في آيات الله عز وجل، حيث استبدل بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ²﴾، قوله: كتامة خير أمة أخرجت للناس.

وقد انتقد أبو إسحاق هذا الافتراء السخيف البارد بقوله: «ومن كان في عقله لا يقول مثل هذا، لأن المتسمين بنصر الله والفتح المذكورين إنما وجدا بعد مئتين من السنين من وفاة رسول الله ﷺ قال: فيصير المعنى: إذا مت يا محمد ثم خلق هذان، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ³﴾، قال: «فأي تناقض وراء هذا الإفك الذي افتراه الشيعة قاتله الله؟»⁴.

ومثله في الجراءة أولئك الذين ادعوا جواز نكاح الرجل تسع نسوة حرائر استدلالا بقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ⁵﴾، ولا يقول مثل هذا في نظر أبي إسحاق من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورباع، فالله عز وجل خاطب العرب بأفصح اللغات، والعرب لا تدعي أن تقول تسعة، وتقول اثنين وثلاثة وأربعة.

ومنهم من أجاز شحم الخنزير وجلده استدلالا بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ⁶﴾، قالوا: فلم يحرم شيئا غير لحمه، ولفظ اللحم في نظر أبي إسحاق يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس، وقد نسب رحمه الله هذا التفسير السخيف والذي قبله إلى أرباب الكلام⁷.

قال أبو بكر ابن العربي رحمه الله: «اتفقت الأمة على أن لحم الخنزير حرام بجميع أجزائه والفائدة في ذكر اللحم أنه حيوان يذبح للقصد إلى لحمه»، قال: «وقد شغفت المتدعة بأن تقول: فما بال شحمه، بأي شيء حرم؟ وهم أعاجم لا يعلمون أنه من قال لحما فقد قال شحما، ومن قال شحما فلم يقل لحما، إذ كل شحم لحم، وليس

1 - النصر: 1.

2 - آل عمران: 110.

3 - سورة النصر: 2.

4 - نفسه، ص: 226-227.

5 - سورة النساء: 3.

6 - سورة المائدة: 3.

7 - نفسه، 227/4 - 228.

كل لحم شحما من جهة اختصاص اللفظ، وهو لحم من جهة حقيقة اللحمية، كما أن كل حمد شكر وليس كل شكر حمدا¹.

ومثل هؤلاء المبتدعة -الذين رد عليهم أبو إسحاق وقبله ابن تيمية- مَثَلُ الباطنية في تفسيرهم للألفاظ الشرعية تفسيرات نائية عن الصواب قضية عن الحكمة كتفسيرهم لفظ الصيام بالإمسالك عن كشف السر، و"الكعبة" و"الصفاء" بالنبي و"المروة" بعلي و"التلبية" بإجابة الداعي و"تسبيح الجبال" برجال شداد في الدين، و"الشياطين" بالظاهرية الذين كلفوا الأعمال الشاقة إلى سائر ما نقل على حد تعبير الشاطبي -من خطابهم الذي هو عين الخبال وضحكة السامع².

قال أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله: «وأما الرأي الغير الجاري على موافقة العربية أو الجاري³ على الأدلة الشرعية، فهذا هو الرأي المذموم من غير إشكال، كما كان مذموما في القياس أيضا، حسب ما هو مذكور في كتاب "القياس"، لأنه تقوُّل على الله بغير برهان، فيرجع إلى الكذب على الله تعالى»⁴.

وإلى هذا المعنى أو قريب منه أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «وقد تبين بذلك أن من فسر القرآن أو الحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام»⁵، زندقة وإلحاد أثرهما فهم سيئ للظاهر وتأويله تأويلا باطنيا باطلا، وسبب البطلان آت من كون ذاك الفهم وهذا التأويل خارجين عن المسلك المتبع من قبل الصحابة والتابعين في تفسير أي الكتاب العزيز، مما يعني أن الفهم السليم والتأويل المقبول يستلزمان سير المفسر على هدي من كتاب الله وسنة الرسول ﷺ مع الفهم الصحيح للأصليين فهما يتناسب وفهم الصحابة والتابعين لهما.

ومحل استخدام المصطلحين إنما يكون في ذات الألفاظ والعبارات المسطورة في السطور، وتختلف درجة الاستخدام باختلاف مقصد المفسر، فمن رام الباطن الصحيح أو مراد الله تعالى

¹ - أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، ج 1، ص: 54. دار الفكر، تحقيق محمد علي البحاري.

² - الموافقات: 233/4.

³ - هكذا في الأصل، وقال المحقق في الهامش رقم 2 مجلد 4، ص: 279 من الموافقات: «لعل الصواب: غير الجاري». اهـ وهو الصواب عندي.

⁴ - الموافقات 279/4-280.

⁵ - مجموع الفتاوى: 243/13.

ليس كمن وقف مع الظاهر، بل إن مصطلح التأويل لا يتم الحديث عنه إلا عند ما يروم المفسر استنطاق الألفاظ للكشف عما تحملها من معان وحكم.

والمنطوق يقضي بأن الفهم السليم للظاهر يؤول حتماً إلى باطن حق، طالما أن آليات التفسير استرشدت بوحى النصوص الشرعية.

وقبل طرق باب ذاك الباطن المأمول أو الفهم السليم لمراد الله تعالى، أقف وقفة تأمل مع الظاهر الصحيح أو الفهم السليم للألفاظ والعبارات العربية من زاوية رؤية أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله التي تمثل رؤية علماء الشريعة الراسخين.

خامساً: الظاهر المحمود آيل إلى التصديق بالرسالة

وبيانه في نظره رحمه الله أن كل ما كان من المعاني العربية التي لا يبنى فهم القرآن إلا عليها، فهو داخل تحت الظاهر، ومزيدها من البيان مثل رحمه الله بالمسائل البيانية والمنازع البلاغية في آي الكتاب العزيز، فتلك المسائل وهذه المنازع التي ترك البحث عن أجوبتها للقارئ، لا معدل بها عن ظاهر القرآن، واجتزأ مما مثل به بأربعة نماذج:

أما النموذج الأول: فقد أرشد فيه القارئ إلى الوقوف على الفرق بين ضيق في قوله تعالى: ﴿يَجْمَلُ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾¹ وبين ضائق في قوله تعالى: ﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ﴾². فالمفردة الأولى صفة مشبهة تدل على الدوام في حق من يريد الله إضلاله عن سبيل الهدى، يشغله بكفره وصدده عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه حرجاً بفتح الحاء والراء، وهي قراءة عامة المكين والعراقيين، والخرج أشد الضيق. وقرأ ذلك عامة قُرأة المدينة: ضيقاً حرجاً بفتح الحاء وكسر الراء.

عن أبي الصلت الثقفي قال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُرِغْ أَنْ يُضْلَهُ يَجْمَلُ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ بنصب الراء، وقرأها من عنده من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ضَيْقًا حَرَجًا﴾ فقال عمر: ابغوني رجلاً من كنانة، واجعلوه راعياً (وليكن مدلياً)، فأتوه به، فقال عمر: يا فتى ما الحرجة؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير³.

¹ - الأنعام: 125.

² - هود: 12.

³ - جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر بن جرير الطبري (ت: 310 هـ): 337/5، 338، ط. دار الكتب العلمية بيروت لبنان. الطبعة الثالثة سنة 1420 هـ - 1999م.

فهذا يدل على أن الحرج والحرج بمعنى واحد، فهما لغتان مشهورتان مستقيضتان مثل الدَّنْفِ والدَّنْفِ والوَحْدِ والوَحْدِ¹.

وأما الثانية، فهي اسم الفاعل الدال على الحدوث والتجدد، وأنه لا يعدو أن يكون أمراً عارضاً للنبي ﷺ مخافة ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ ينفقه في الاستبعا كالملوك².

وأما النموذج الثاني: فقد وجه فيه القارئ إلى الوقوف على الفرق بين النداء بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المراد به خطاب المؤمنين في المدينة حيث تشرع المعاملات كالمدينة مثلاً بالدين³، والنداء بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد به خطاب أهل مكة خاصة، وبين النداء بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذي يوجه فيه الخطاب تارة⁴ إلى الناس كافة تحذيراً لهم من هول أشرط الساعة وإلى مشركي العرب طورا آخر⁵، وبين النداء بـ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾⁶ المتوجه فيه الخطاب إلى مشركي العرب الذين يتعرون عند طوافهم بيته الحرام ويبدون عوراتهم هنالك⁷.

وأما النموذج الثالث: فقد حث فيه على إيجاد الفرق بين ترك العطف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾⁸ والعطف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾⁹.

فالأولى ذكر الله فيها خاصة عباده وخاصة أوليائه بصفاتهم التي أهلّتهم للهدى والفلاح، ثم عقبهم بأضدادهم المردة، وهم اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله ﷺ توبيخاً لهم على جحودهم نبوة محمد ﷺ فهم لا ينفع فيهم الهدى، ولا تغني عنهم الآيات والنذر، ولم يعطف قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ لتباينهما في الغرض. فإن الأولى سبقت لذكر الكتاب، وبيان نشأته، والأخرى سبقت لشرح تمردهم وانهماكهم في الضلال¹⁰، والثانية وهي قوله

¹ - نفسه، ص: 338.

² - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعد عبد الله أبي عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: 691 هـ) 224/3 ط دار الفكر بيروت بتاريخ: 1416 هـ 1996م.

³ - نفسه: 578/1 والخطاب هنا للصحابة في المدينة على اعتبار أن النداء: خطاب شقاهي، إذ لا يعد الخطاب الشقاهي موجهاً إلى من بعدهم إلا بدليل خارج من نص أو إجماع، خلافاً للحنابلة (المواقفات 447/4) الهامش رقم 3.

⁴ - سورة الحج: الآية: 1، والآية 15 من سورة فاطر، (تفسير الطبري 104/9 و 404/10).

⁵ - سورة الحج: الآية: 49، والآية 73 (تفسير الطبري 173/9 و 189).

⁶ - سورة الأعراف، الآية: 31.

⁷ - تفسير الطبري: 455/5 وما بعدها.

⁸ - سورة البقرة: 6.

⁹ - لقمان: 6.

¹⁰ - تفسير البيضاوي: 135/1-136.

تعالى: ﴿وَمِنَ النَّامِرِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يراد بها ما يلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها، والأساطير التي لا اعتبار بها، والمضاحك وفُضُول الكلام كالغناء ونحوه، والإضافة بمعنى: "من" وهي تبينية إن أراد بالحديث المنكر، وتبعية إن أراد به الأعم منه، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدث بها قريشا، ويقول: «إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بحديث رستم»، وقيل: كان يشتري القيان ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنعه¹ عنه².

وأما النموذج الرابع: فقد أورد فيه آيتين متشابهتين ظاهرا، متباينتين باطنا، أما الأولى: فقولته تعالى في سورة الشعراء الآية 154: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُحَرَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، وأما الثانية فقولته تعالى في السورة نفسها الآية 186: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُحَرَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

فالخطاب في الأولى للنبي صالح خاطبه قومه ثمود، بأنه معلل بالطعام والشراب وليس ربا ولا ملكا فيطيعونه، فأكدوا ذلك له بقولهم: ما أنت إلا بشر مثلنا من بني آدم تأكل ما نأكل، وتشرب ما نشرب فعلام تبعك؟، وتأكيدهم الأمر له هو الذي يفسر حذف العطف في الآية³. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: {إن صالحا النبي ﷺ بعثه الله إلى قومه، فأمنوا به واتبعوه، فمات صالح فرجعوا عن الإسلام، فأتاهم صالح، فقال لهم: أنا صالح، قالوا: إن كنت صادقا فأتنا بآية، فأتاهم بالناق، فكذبوه وعقروها، فعذبهم الله}⁴.

والخطاب في الثانية لشعيب عليه السلام خاطبه قومه أهل مدين بما خاطبت به ثمود صالحا من أنه معلل بالطعام والشراب كباقي بني البشر، وإنما أتوا بواو العطف هنا: «وما أنت إلا بشر مثلنا» على عكس الأولى للدلالة على أن شعيبا جمع بين وصفين منافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه⁵. فإذا تم فهم هذه المسائل البيانية والمنازع البلاغية على ترتيبه في اللسان العربي، فإن ذلك في نظر أبي إسحاق يقضي إلى حصول أمرين:

-الأول: فهم ظاهر القرآن.

¹ - هكذا وردت الكلمة في تفسير البضاوي 345/4، وفيها لبس، ولعل الصواب: «ليمنعه منه» لأن السياق يحتمل هذا المعنى، إذ الذي يشتري القيان، ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام، إنما هدفه هو منع هذا الأخير والحيلولة بينه وبين الإسلام، والله أعلم.

² - تفسير البضاوي: 344/4-345.

³ - تفسير الطبري: 468/9، تفسير البضاوي: 249/4، الموافقات: 215/4 الهامش: 7.

⁴ - نفسه: الجزء والصفحة. (تفسير الطبري).

⁵ - تفسير البضاوي: 252/4.

- الثاني: إثبات إعجاز القرآن عند القائلين بأن إعجازه بالفصاحة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَلَدْعُوا مَنْ أَشْكَفْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾¹ ثم أمرهم بعد العجز بالإتيان بسورة واحدة، فقال تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

والإعجاز حصل بالفصاحة لا بغيرها في نظر أبي إسحاق، لأن العرب في الجزيرة يومئذ لم يوتروا إلا من باب ما يستطيعون مثله في الجملة، ولأنهم دعوا وتحذوا وقلوبهم لاهية عن معناه الباطن الذي هو مراد الله من إنزاله.

فإذا عرفوا - كما قال الشاطبي - عجزهم عنه، عرفوا صدق الآتي به، وحصل الإذعان وهو باب التوفيق والفهم لمراد الله تعالى².

والإذعان نفسه هو الباطن المراد في نظر أبي إسحاق، والكلام فيه بالتفصيل فيما يلي:

سادساً: الباطن المحمود والوسائل المحينة على إدراكه

ذلكم الإذعان عناه الشاطبي بقوله: «وكل ما كان من المعاني التي تقتضي تحقيق المخاطب بوصف العبودية، والإقرار لله بالربوبية، فذلك هو الباطن المراد والمقصود الذي أنزل القرآن لأجله»³، وأغنى رحمه الله المسألة بشواهد تبين المقصد، وقبل عرضها أود التمهيد لها بالشرطين الآتين:

الشرط الأول: أن يصح على مقتضى الظاهر على لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية، بناء على التسليم بكون القرآن عربياً، بحيث لو كان لهم فهم لا يقتضيه كلام العرب، لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق.

الشرط الثاني: أن يكون له شاهد نص أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض، لأنه إذا لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان له معارض صار من جملة الدعاوى التي تُدعى على القرآن والدعاوى الجردة غير مقبولة باتفاق العلماء⁴.

وكأنى بأبي إسحاق رحمه الله وهو يضع الشرطين يروم إبعاد الباب أمام فئتين من الناس:

¹ - سورة هود: 13.

² - المرافقات: 217-216/4.

³ - المرافقات: 217-216/4.

⁴ - نفسه: 232/4.

* فتنة تقولت على الله وحملت كلامه ما لا يحتمل من الأباطيل والترهات، بدا لي أنه عنها بالشرط الأول وهي متمثلة في الباطنية ومن على شاكلتهم، فقد فسروا قوله تعالى: «فاخلع نعليك»¹ بخلع الكونين²، والتفسير على ظاهره على حد تعبير أبي إسحاق لا تعرفه العرب لا في حقانقتها المستعملة ولا في مجازاتها.

ويحكي عن الشيعة زعمهم أن الأحكام الشرعية إنما هي خاصة بالعوام، وأما الخواص منهم، فقد ترقوا عن تلك المرتبة، فالتساء بإطلاق حلال لهم، كما أن جميع ما في الكون من رطب ويابس حلال لهم أيضاً، واستدلوا على ذلك —على حد تعبير أبي إسحاق— بخرافات عجائز لا يرضاها ذو عقل وصاروا —في نظره— أضر على الدين من متبوعهم إبليس لعنهم الله كقوله³:

وكنتم أمراً من جند إبليس فانتهى بي الفسق حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي⁴

* وفئة صلحت نيتها وصحت منها العزيمة على خدمة كتاب الله عز وجل بالشرح والتوضيح، لكن في تفاسيرها إشكالات قد تكون من قبيل الباطن الباطل أو من قبيل الباطن الصحيح، ومثل لها بمن تصدى لتأويل فواتح السور نحو "الم" و "المص" و "حم" ونحوها، فقد فسرت بأشياء منها ما يظهر جريانه على مفهوم صحيح ومنها ما ليس كذلك.

فحكى أن ابن عباس⁵ رضي الله عنه قال في "الم" أن "ألف" الله و "لام" جبريل و "ميم" محمد ﷺ وتعقب أبو إسحاق هذا الفهم قائلاً: "وهذا إن صح في النقل فمشكل، لأن هذا النمط من التصرف لم يثبت في كلام العرب هكذا مطلقاً، وإنما أتى مثله إذا دل عليه الدليل اللفظي أو الحالي كما قال: ولا أريد الشر إلا أن تأ.

¹ - سورة طه: 12.

² - أفاد محقق الموافقات في: 250/3 بأن هذا التفسير يوجد في لطائف الإشارات 448/2 للقشيري.

³ - هكذا وردت الكلمة في "الاعتصام"، ويبدو لي أن النظم للشاطبي، لكن جعل الكلمة (كقوله) مهمة بإيرادها في صيغة ضمير الغائب، حتى لا يصف نفسه بكونه من جنود إبليس، ولو كان النظم في اعتقادي - لغيره لقال: كقول الشاعر على لسان هؤلاء. والله تعالى أعلم.

⁴ - الاعتصام: 31/2.

⁵ - أشار المحقق في الهامش رقم 2 ص: 235 ج 4 من الموافقات إلى أن هذا القول حكاه عن ابن عباس: أبو الليث في بحر العلوم 89/1 لكن المناوي في الفتح السماوي 26/1 نفى هذا القول عن ابن عباس.

والرجز لقيم بن أوس وعزاه إلى زهير بن أبي سلمى، وأوله: "بالخير خيرات وإن شرا فإ" قال سيويه: يريد: إن شرا فشر ولا أريد الشر إلا أن تشاء¹.

قال أبو إسحاق بعد إirاده لهذا المثال: "والقول في "الم" ليس هكذا، وأيضا فلا دليل من خارج يدل عليه، إذ لو كان له ذلك، لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعي على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه"، قال: «ولما لم يثبت شيء من ذلك، دل على أنه من قبيل التشابهات، فإن ثبت له دليل يدل عليه صير إليه»².

ومنهم من فسرها بحروف الهجاء وأن القرآن مترل بجنس هذه الحروف، وهي العربية، وهذا التفسير قريب من ذي قبل.

وذهبت جماعة إلى أن المراد بها أعدادها تنبيهها على مدة هذه الملة، وهو قول يفتقر في نظر أبي إسحاق إلى أن العرب كانت تعهد في استعمالها الحروف المقطعة أن تدل بما على أعدادها، بل كان أصل ذلك في اليهود كما ذكر ذلك أصحاب السير.

على أن أظهر الأقوال في نظره هو الذي ذهب إلى أن هذه الفواتح أسرار لا يعلم تأويلها إلا الله، ومن ثم فهي من قبيل التشابهات³. وفي هذا المثال في تقديري كفاية لأفرغ بعده للشواهد التي وعدت بعرضها تمثيلا للباطن الصحيح.

وأولى تلك الشواهد: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "كان عمر يدخلني مع أصحاب النبي ﷺ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتدخله ولنا بنون مثله؟ فقال له عمر: إنه من حيث تعلم، قال ابن عباس: فسألني عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾⁴ فقلت: إنما هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، وقرأ السورة إلى آخرها، فقال عمر: ؟ والله ما أعلم منها إلا ما تعلم"⁵.

- اختيار عمر بن الخطاب لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما على صغر سنه - اختيار موفق مؤسس على جودة ذهن عمر، وثقابة رأيه، وإصابة ظنه بالفتي الذي تربى في بيت النبوة الظافر بدعوة صالحة من النبي ﷺ: {اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل}⁶.

¹ - الموافقات 235/4-236 رقم 23. قارن مع الهامش 2 ص: 237.

² - نفسه، ص: 237-238.

³ - نفسه، ص: 237-238.

⁴ - النصر: 1.

⁵ - الموافقات 210/4-211، والأثر في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب إذا جاء نصر الله والفتح.

⁶ - أخرجه الإمام أحمد في المسند ج 1، ص: 335. والحاكم في المستدرک ج 3، ص: 615، وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

وفتى يملك هذه المزايا لا شك أنه سيكون له شأن كبير وحظوة عليا في تفسير كتاب الله عز وجل، فقد أخرج عنه البخاري أنه قال: {ضممني رسول الله ﷺ وقال: اللهم علمه الكتاب} ¹.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعليقا على الحديث: «والمراد بالكتاب القرآن، لأن العرف الشرعي دل عليه، والمراد بالتعليم ما هو أهم من حفظه وتفهم فيه» ². إذا علم هذا أدركنا رد عمر رضي الله عنه المقنع والقاطع لكل احتجاجات عبد الرحمان ابن عوف، فهو رضي الله عنه يزن الأمور بميزانها، وكل شيء عنده بمقدار، إنه بكلمة أخرى لا يحفل بالأسنان والأشكال بقدر ما يولي اهتماما لأمر آخرى.

قابن عباس وإن كان مثل البنين على حد تعبير عبد الرحمان بن عوف - صغير السن والقامة - فإن عقله والفهم الذي أوتي به بمزلة عقل وفهم العلماء الكبار الراسخين في العلم، وما تأويله الموافق لتأويل عمر إلا برهان على صدق هذه الدعوى. وعلى كل حال فلسورة النصر ظاهر وباطن، وإشراك عمر لابن عباس في النظر فيها، إنما كان - في اعتقادي - لأجل قراءة ما وراء ألفاظها.

أما ما يبدو من ظاهرها، فهو بمقدور كل من كان بحضرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الصحابة رضوان الله عليهم الذين اتخذهم محل استشارة في كل قضية من القضايا العملية، وذاك الظاهر هو أمره تعالى لنبيه محمد ﷺ بالتحميد والاستغفار يوم يأتيه النصر والفتح المبين من الله عز وجل. ³

ثاني الشواهد: ما ثبت من فهم عمر رضي الله عنه لتزول قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ⁴، فقد فرح الصحابة بتزولها، وبكى هو، وقال: "ما بعد الكمال إلا النقصان" ⁵، فقد فهم رضي الله عنه من باطن الآية اقتراب أجل رسول الله ﷺ، مستشعرا نعيه ﷺ في سورة النصر.

¹ - صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ اللهم علمه الكتاب.

² - فتح الباري 229/1.

³ - الموافقات: 215/4.

⁴ - سورة المائدة: الآية 3.

⁵ - مصنف ابن أبي شيبة: 140/8.

فالأية في قول عمر نزلت في عرفة يوم الجمعة عام حج النبي ﷺ حجة الوداع ، بحيث لم يعش بعد نزولها إلا إحدى وثمانين ليلة، وهذا القول هو أولى الأقوال بالصواب في نظر أبي جعفر محمد بن جرير الطبري¹.

ثالثها: ما روي عن الصحابي الجليل أبي الدحداح رضي الله عنه أنه قال عند نزول قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾² : {إن الله كريم استقرض منا ما أعطانا} ففهمه هذا في نظر أبي إسحاق هو الفقه وهو الباطن المراد. وفي رواية: قال أبو الدحداح: "يستقرضنا وهو غني؟" فقال عليه الصلاة والسلام: {نعم ليدخلكم الجنة}.

وفي الحديث قصة مؤداها ما حكاه ابن مسعود رضي الله عنه من أن الله لما أنزل على محمد ﷺ الآية السابقة، قال أبو الدحداح: {يا رسول الله: وإن الله يريد منا القرض؟} قال: {نعم يا أبا الدحداح} قال: أرني يدك قال: فناوله، قال: فإني أقرضت ربي حائطا لي فيه ست مئة نخلة. ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعيالهم، فناداهما يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: أخرجي، قد أقرضت ربي حائطا فيه ست مئة نخلة³.

وفي مقابل هذا الفهم قالت اليهود عند نزولها: «{إن الله فقير ونحن أغنياء}»⁴، وفهمهم في نظر أبي إسحاق لم يزد على مجرد القول العربي الظاهر بحملهم استقراض الرب الغني على استقراض العبد الفقير⁵.

وفي النماذج الثلاثة التي سقتها كفاية، فقد بان فيها بجلاء كيف كان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون كلام الله عز وجل.

ولا شك أن القارئ وهو يقف على هذا الفهم الدقيق سوف يتساءل عن الوسائل المعينة لهم على إدراكه.

وتلك الوسائل منها ما هو مكتسب، ومنها ما هو عطاء رباني، وهذا الأخير أيضا في تقديري لا ينال جزافا.

¹ - جامع البيان في تأويل آي القرآن: 418/4 و 424.

² - البقرة: 245.

³ - المواقف: 218/4 قارن مع الهامش رقم 3، والحديث أخرجه البزار في مسنده بسند ضعيف 447/1 رقم 944، كما قال الخف.

⁴ - آل عمران: 181.

⁵ - المواقف: 218/4.

— أما المكتسب منها، فيأتي في طبيعته اللغة العربية التي لا بد منها، وعلم القراءات والناسخ والمنسوخ وقواعد أصول الفقه، وعلم الأسباب، وعلم المكي والمدني¹.

— وأما العطاء الرباني، فأريد به تلك الاعتبارات القرآنية التي نص عليها أبو إسحاق، فهي واردة على القلوب ظاهرة للبصائر خصوصاً منها التي يكون أصل انفجارها من القرآن، فهي صحيحة ومعتبرة في فهم باطن القرآن من غير إشكال، لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق لكل واحد من المكلفين وبحسب التكليف واحوالها لا ياطلاقها.

وإذا كانت كذلك، فالمشي عليها مشي على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآني قلما يجده إلا من كان من أهله عملاً به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه².

وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين قال: «فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين، وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح به على غيرهم»³، وساق رحمه الله أدلة من القرآن تؤكد هذا المعنى، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَمَلُوا مَا يُوعَدُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا وَلَئِذَا لَأَتَيْنَاهُم مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَكَمْ تَذَنَّهُمْ فَرَأَوْهُم صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾⁴ قال عقبه: «فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به، يهديه الله صراطاً مستقيماً»⁵، فالآية المسوقة هنا دليل على ثبوت أمرين:

الأول: أن الفهم السليم لمعاني القرآن منحة إلهية لكل من اتبع صراطه المستقيم.

الثاني: أن ذاك الفهم — بناء على ما تقدم — لا يذوقه إلا القلوب الطاهرة، وهي قلوب

المتقين، وعلى مقدار صلاح القلب يصلح اللسان وتصلح معه سائر الجوارح.

فاعتقاد القلب على حد تعبير شيخ الإسلام أصل لقول اللسان وعمله أصل لعمل

الجوارح، فهو في نظره ملك البدن، وروى في ذلك أثراً عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول فيه:

¹ - المصدر السابق: 198/4.

² - المصدر السابق: ص: 253.

³ - مجموع الفتاوى: 245/13.

⁴ - سورة النساء، الآية.

⁵ - المصدر السابق الجزء والصفحة.

«القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبث جنوده»¹.

ومن حُرْم في نظره هذا العطاء الرباني: فالأولى له أن يتحفظ من القول في كتاب الله تعالى على امتلاكه أدوات التفسير، وينبغي أيضا أن يتحفظ من باب الأولى والأخرى إذا فقد تلك الأدوات أو فقد شيئا منها.

وقد رأى الشاطبي أن الناس في العلم بما على ثلاث طبقات:

- إحداها: من بلغ في ذلك مبلغ الراسخين، كالصحابة والتابعين ومن يليهم، وهؤلاء قالوا مع التوقي والتحفظ والهيبة والخوف من الهجوم، قال أبو إسحاق رحمه الله عند إirاده لها: «فنحن أولى بذلك منهم إن ظننا بأنفسنا أننا في العلم والفهم مثلهم، وهيئات!».

- والثانية: من علم من نفسه أنه لم يبلغ مبالغهم ولا داناهم، فهذا طرف لا إشكال في تحريم ذلك عليه.

- والثالثة: من شك في بلوغه مبلغ أهل الاجتهاد، أو ظن ذلك في بعض علومه دون بعض، فهذا أيضا داخل في حكم المنع من القول فيه، لأن الأصل عدم العلم، فعندما يبقى له شك أو تردد في الدخول مدخل العلماء الراسخين، فانسحاب الحكم الأول عليه باق بلا إشكال، وكل أحد ففيه نفسه في هذا المجال².

¹ - المصدر السابق: 234/13.

² - الموافقات: 284-283/4.

لائحة المصادر والمراجع

- ❖ القرآن الكريم برواية ورش.
- ❖ أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي المعافري المتوفى (453هـ) تحقيق: محمد علي البحاري، طبعة دار الفكر، بدون تاريخ.
- ❖ الإمامة والرد على الرافضة، لأبي نعيم الأصفهاني، تحقيق وتعليق: د. علي بن محمد ناصر الفقيهي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- ❖ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للإمام القاضي تاجر الدين أبي سعيد عبد الله أبي عمر الشيرازي البضاوي (ت691هـ) ط. دار الفكر، بيروت، 1416هـ/1996م.
- ❖ الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي (ت790هـ)، مراجعة: أبو سلمان خالد عبد الفتاح شبل، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/1993م.
- ❖ جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري (ت310هـ)، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1420هـ/1999م.
- ❖ صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري (ت256هـ) ط. دار البيان الحديثة الحديثة القاهرة، مصر، ط. أولى، 1423هـ/2003م.
- ❖ فتح الباري يشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) نج: عبد العزيز بن باز، ط. دار الفكر، 1411هـ/1991م.
- ❖ قانون التأويل، لأبي بكر بن العربي المعافري، دراسة وتحرر: محمد السليمان، دار الغرب الإسلامي.
- ❖ لسان العرب لابن منظور (ت711هـ) دار صادر بيروت، ط. 2، 2003م.
- ❖ مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت728هـ) ط. مكتبة المعارف الرياض، المغرب بدون تاريخ.
- ❖ مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت421هـ) المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ثانية، 1392هـ/1978م.
- ❖ مصنف أبي بكر بن أبي شيبة الكوفي (ت235هـ) تعليق: كمال يوسف الجوت، دار التاج، طبعة أولى، 1409هـ/1989م.
- ❖ الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، تقديم فضيلة الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، تعليق: أبو عبيدة مشهور بن حسن، ط. أولى 1417هـ/1997م. دار ابن عقاب.